من الأدب النسائي

من مذكرات مطلقة

للسيدة الفاضلة « ليلى »

[إذا قسا قلب الرجل ومات ضميره فلن تجد الرحمة سبيلا إلى قلبه ، وهيهات أن يرد إليه الشعور أنه سارق ، وفي بعض الحالات قاتل . يعطي باليمنى ويسلب باليسرى ، وينتصب الروح الهائمة لتحل الشقوة ويدب التلف إلى القلب النابض فيخفت . أيها الانسان العابث ! أما عرفت أن هناك إلهاً بالمرصاد ؟]

أذلك حلم أتخيله ، أم هي الذكريات تطوقني برأسي كما يطوف النحل بخلاياه ، لما أزيره وطنينه ، ولكنها لا تنتج العسل ولا فيها شفاء للنفس ولا للناس ؟ لقد كادت صرخة الجوع تفلت من بين شفتي ، ولكنها في سجن من الإباء وقيد من الكبرياء ! لقد حيجت الدموع أن تطفئ أشجاني وتبرد نار أحزاني ، ولقد هتفت بوحدتي أن أسبلي عليّ ستارك ، ولا تمتعي بآلامي مهجة الشامت ، حتى تستقر نفسي ، ويعاودني كسابق الأمر أنسي ، وهيهات ... فالقلب قبر صامت يحمل رفات الذكريات ! لقد نسي النادر كؤوس الهناءة التي سكبتها له بيدي ، وألوان السعادة نعم بها في جواري ، وجنة البيت تضفي عليه النعيم ... نسي الصدر الرحب الذي وسع أنانيته ، والروح التي خلقت فيه عبقريته ... نسي الحنان يرتع في جنباته ، والحب الخالص يرعاه في غدواته وروحاته ... كانت حياتنا معاً مثلاً عالياً للوفاء ، فبرهنت الأيام على أنْ ليس لخالٍ بقاء ... نسي كل شيء ، وبرم بعشرة السنين الطويلة : لم يرحم الإحساس المرهف يجرح بسكين الصد والهجران ؛ ولا الآلام تخترم الجسم الرقيق كالنبال ، ولا النفس العالية يسيمها الخسف والهوان ؛ وطفى كالسيل الجارف يهد من جسر الآمال ، ويذيب الأمانيّ ويغرقها في صميم الأوحال !

إستبدل بالمرحلة السعيدة التي قطعناها ، أخرى شقية ما ألفناها ، تبدل وتغير من ربيع زاهر ضاحك إلى خريف مجدب ماحل ، ثارت النفس لهذا الاختلاف ، ثم جاء وقت الحساب ، فما أجدى تفاهم ولا عتاب . افترقنا ، هو سادر في غلوائه ، وأنا قلبي تائه في بيدائه ، وحملت نفسي أشلاء ممزقة وهي حائرة مبشرة ، وصرخت في وجه القدر : أنا صابرة صابرة ، وعلى تحدي غدره قادرة ! أشحت بوجهي حين تقدم إلي بالمساعدة ، حتى حقوق رفضتها معاندة ، وخرجت من بيته مرفوعة الرأس . وهناك في غرفة حقيرة الأثاث انطويت على نفسي بعيدة عن الناس ، أبيع الحلية أسد بها الرمق ، وأغالب حالات الضيق والقلق ، وأطارد شبح الذكرى حتى حقرت في نظري الحياة . وها هي ذي نفسي تستمرئ هذا العيش الجديد ، بالرغم من بعده عن كل تغيير وتجديد . بقي فضول الناس ، فهم بمعرفة حقيقتي مولعون ؛ يعجبون لوحدتي وانفرادي ، ويتساءلون عمن أحب وعمن أعادي . لم يبق غير الجبل أسارع إليه لأدفع عني شر الإنسان ، ولا بد أنه ملاحقي في كل زمان ومكان . إني أحسن جوارهم ، ولكن لا أحب حوارهم . آنس بالوحدة وأرى فيها عالماً من نور ، وأوقن أن ما يصيبنا في كتاب مسطور . درأت عن نفسي فتنة الدنيا بهذا الاحتجاب ، وكأني سأمة طال عليها الاغتراب . رأيت السلوان في مصحفي وكتابي ، وناشدت الله أن يجزل ثوابي ؛ حتى إذا اجتزت المحنة في ثبات . أخذت أفيق من غمرة ذهولي وأقول : حياة كالعدم ، شيء غير معقول ... لم لا آخذ من دهري بنصيب ، وأستبدل حبيباً بحبيب ؟

صحت وقد نفضت عني حياة العدم ، فليس في صفحتي ما يوجب اليأس والندم : أشرق يا نفسي في جوانب صدري . هأنذي لا زلت شابة فتية ... لم تكونين يا نفس ضحية الأحزان ونعيم الوجود يبدو أمامك ؟ انشطي وافسحي المجال لروحك ، وتمدي بالسرور شتى جروحك ... ما ضرك لو تعرفت بهذا وذاك ... ؟ أليس لأسير الأسى من فكاك ؟ أيقضي علي بالقسوة والحرمان

وسواى يلهو مع الصحب والخلان . . . إن ظهرى لا يحتمل وقر السنين ، ولا يرضى بشقاء العيش غير المجانين ! لقد لقيت جزاء الإخلاص ، وأفلست من حبه أيما إفلاس ، ولكنى سأتناول بيدى كؤوس النعيم ، وأطرح همى الدائم المقيم . نحن بنى آدم كالأعاصير تثور وتهدأ ، وما نحن إلا قصة أو حديث فى أساطير ، ومهما طال بنا الأمد فسيجرفنا الفناء ، وسنجد أن الحياة لم تكن تستحق العناء ، فلنشرب من وردها الصافى . إنى أحبها وعلى رأسى تاج من الشرف يلمسه من جهلنى ومن عرفنى . أحبها فى أحضان النسمة الطيبة والكرامة ، لا ينغصها وخزة ضمير ولا ندامة . فاللهم اهدنى السبيل ، واكفنى شر القال والقيل . كيف أناضل للعيش وحيدة ، وأنا بمعرفة أساليب الناس بعيدة ؟ واخيبتاه إن وقعت فى الحبالة ، ولم يبق فى مصباح عقلى زيالة . اللهم خذ بيدى فلست أريد إلا أن أخرج عن جمودى وأشعر بكيانى ووجودى . هأنذى أفتح النافذة وأتلقى نظرات جارى متحفزة . قال : عمى مساء ! قلت : عم مساء ! قال : يظهر أننا فى الوحدة سواء . لم تنفرين من المجتمع ، أما من أقارب أو أصدقاء لك فى هذا البلد ؟ قلت وجدت الخير فى صحبة الكتاب ، بعد أن تقطعت بينى وبين صاحبى الأسباب . أما البنون فالحمد لله الذى رفع عنى عبئهم ، ولم يشأ أن أتحمل ذنبهم . قال يا لك من مسكينة ! لا بد أن تكون حياتك موحشة قاسية ، وماذا يملأ فراغك ؟ ما ضرك لو نكون صديقين ؟ فكانت إجابتى بصمة ساخرة ، وكنت فى تحويل دفة الحديث ماهرة . ثم أقفلت النافذة بغير تحية ، وأنا أقول : خاب فألك ! لن أكون مرة أخرى تحية

دخلت علىّ جارتى ودعتنى للزيارة ، فلم أشأ أن أعارض ، وجلست إليها أستمع هراء فى هراء ، ولا أدرى إن كان حديثاً أو مواء . لقد حاولت الإفصاح ، وأخذت تستدرجنى لأقص عليها واقعة حالى ، وأنبئها بالامى وآمالى ، فقصصت عليها أمرى باختصار ، فأظهرت لى أنها من خيرة الأنصار ، وأخذت تلين ملمسها كالحية الرقطاء ، على صورة لم يخف ما بها من دهاء . وبرغم تظاهرها بالبذخ واليسار شعرت باحتقارها . ثم خرجت من لمستها وبينى وبينها هوة سحيقة . لقد تجرعت الساعة التى قضيتها معها كؤوس مرة المذاق ، وقد عزمت وأكدت العزم ألا يكون بعدها تلاق

خرجت اليوم فى الطريق ، من غير ما صاحب ولا رفيق ، فأخذتنى النظرات السافلة ، ورحت أتعثر بين السابلة . أخذت عينى إلى ماهى من الملاهى ، وأنا أقول أسألك العصمة يا إلهى . رأيت نساء يرقصن شبه عرايا ، ونفوسهن تشف كالمرايا ، ليس لهن هدف غير الرجال ، وسلب ما يقدرن عليه من مال . أما الحب الذى يتظاهرن به فما هو إلا خداع وإغراء ، قد جاز على عقول هؤلاء التعساء . كانوا يلتهمونهن بأنظارهم إلتهاماً ، ويظهرون جوعاً وهياماً . والنساء يتدللن والرجال يتسللون ، وكل بدوره يحيك الشباك ، ويبحث عن ضالته هنا وهناك . وبدلاً من أن أسر بالأنوار الساطعة والموسيقى الصاخبة ، شعرت كأنى أريق ماء وجهى ، وأن الشيطان واقف وراء ظهرى وأمامى ينفث من روحه فى تلكم الأنغام ؛ فأسرعت بالفرار من هذا المكان ، أنشد فى وحدتى الطمأنينة والأمان .

« ليلى »

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الرقى شارع الملك لابلجمرة
ومن المكتبات العربية الشهيرة